«أولا.. أن ندمّر عالمًا»

أسماء عزيزة(*)

لعلّ تصوير المشهد الثقافي الفلسطيني في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ يبدو مهمة أكثر تعقيداً من تصوير مشاهد ثقافية في بقع أخرى في العالم، بسبب مزيّة وخاصية هذا المكان السياسية والتاريخية.

ونحن، إذ نتحدّث عن هذا المجتمع (المنكوب، المحتل، القابع تحت تهديد التهويد والأسرلة)، وبالتالي ثقافته وممارسته لها، والتي تلتصق بها جميع هذه الأوصاف، نتحدث عن «لسانه»/«آدابه» العصية على الإيضاح والتصوير. فهي، كما وُصفت تاريخياً، «قطاعات الأمة الأكثر حساسية وشفافية». فماذا بالإمكان القول عن آداب مضروبة بفعل التاريخ والظرف السياسي الراهن القاسيين، واللذين يفرضان عليه، أي المجتمع، احتلالاً بأشكال غير مباشرة، كونهم «مواطني دولة إسرائيل». فقد يشكّل أحدهم احتلالاً ثقافياً، وهو الأخطر من السياسة وأبعادها ووسائلها الواضحة والمفتوحة على التصدّي والتجنّب، بالإضافة إلى فرضه حصاراً، ونحن في الثقافي، يقطع هؤلاء عن مدهم الحضاري العربي المحيط.

بالرغم من تركيبة المشهد الاجتماعي/

(*) شاعرة وصحافية شابة من حيفا.

السياسي في فلسطين الداخل، إلا أنها، هي بالذات، لا تفقد صلاحيتها للتدليل على الموضوع الذي نسوق له الحديث. فأول ما نستطيع قوله هو تزاوج السياسة والثقافة؛ إن المشهد الثقافي لا يمكن تقييمه بالتوازي مع المنابع والتطورات السياسية في المنطقة فحسب، بل هو نتاجها وحصيلتها أيضاً؛ أي أن الثقافة السياسية هي التي عملت على ترسيم ملامح المشهد الثقافي في الداخل الفلسطيني، بسبب أهميتها ودخولها في الحيّز العام وفي تفاصيل حياة الناس اليومية، ولا سيّما أولئك المتواجدين داخل الدوائر الثقافية. ولذلك، فإننا نرى أن الهوية الثقافية متأثرة تأثراً بالغاً بالخطاب السياسي والهوية السياسية التي بلورها فلسطينيو الـ٤٨ خلال العقود المنصرمة؛ فهي إن أمعنّا النظر فيها، نجدها في أحيان كثيرة تحمل نبرةً عالية، مباشرة، وحادة. وإن أفرزت محاولات لتقديمها مطلقة غير تابعة لجسم/خطاب/سلوك سياسي، فغالباً ما تكون مترهلة ورخوة، بفعل تأثر الذائقة الجماعية السابق، أصلاً، من المناخ السياسي العام.

في محاولة لتفحّص جيل الشباب الفلسطيني في مناطق الـ٤٨، نراه لا يشكل وحدة واحدة موحّدة الثقافات والسلوكيات، تماماً كباقي المجتمعات، الأمر الذي يجعل احتمال الحديث التعميمي مجحفاً بحقه. زد على ذلك التمايز الذي خلّفه ويخلقه الاحتلال عند الشباب، كالانتماء القومي والوطني والرؤية نحو الهوية الذاتية والجماعية. إذن، تصبح هنا الشرائح و«التيارات» أكثر تشتتاً. وهنا يواجه الشباب تحدياً مضاعفاً، في أن يعمل مثلاً على بناء مشهد ثقافي فلسطيني مستقل (وربما مستقل، أيضاً، عن شعبه الفلسطيني المجزّأ، بفعل الظروف الجيوسياسية)، بسبب كونه مسقطاً سياسياً وثقافياً واقتصادياً من الخطاب الإسرائيلي (ومعظمه لا يقاوم ذلك الإسقاط) ومن الخطاب الفلسطيني «السلطوي»، على اعتبار أن أرض الوطن هي الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧. لذا، يجد الفلسطيني في «إسرائيل» نفسه مجبراً على أن يكسّر رأسه بمطرقتي الطرفين، ويخرج منهما سالماً.

وأمام هذا التحدي، وبسبب قسوته، نلمس الفعل «العكسي» للشباب الفلسطيني، وهو محاولات الإنتاج الجمعي والمدني، والفردي كذلك. ولكن مؤثرات وعناصر عديدة تجعل هذا المشهد الإنتاجي فقيراً ونخبوياً في الوقت ذاته. أولاً، يعتبر المجتمع الفلسطيني في الداخل بمعظمه مجتمعاً قروياً، وفي ظل غياب مدينة فلسطينية حقيقية في الداخل، تتشكّل جماعات شبابية أكاديمية مثقفة، وهي قليلة، في

المدن «المختلطة» كحيفا وعكا ويافا؛ جماعات فاعلة تحاول خلق حراك ثقافي جدير بالالتفات. ولكنّ الشباب خارج هذه الجماعات، أو فلكها، يبقى بعيداً عن دائرة الإنتاج والاستهلاك الثقافي في هذه المدن، فنرى أن هذه الجماعات القليلة، والمتداخلة أيضاً، هي الممارِسة للثقافة؛ المنتجة والمستهلكة في الأوان ذاته، وهي فاعلة في ما هو أشبه بفقاعة «ثقافية» بعيدة عن الناس بعامة والمجتمع القروي بخاصة. ولكنها في مسعى دؤوب لخوض تجارب لافتة، مثلاً، في المسرح «المحلي»، والذي رغم لجوئه أحياناً إلى نصوص عالمية، إلا أن النص المحلي في مرحلة مخاض واضحة؛ في الموسيقى «المجدِّدة» للتراث، والجديدة المتأثرة بأساليب موسيقية عالمية حديثة كالراب والريجي والروك؛ في السينما الوثائقية والروائية، ونشهد هنا تجارب سينمائية تتجاوز الرسالة السياسية التي اعتاد العالم مشاهدتها من فلسطين، وغيره. أما الأدب والشعر فلا يزالان يقبعان في هامش الديناميكية الثقافية عند الشباب. لعلّ أشكال التعبير «السريعة» و«الجذابة» كالتصوير والفيديو آرت والفن التشكيلي، على سبيل المثال، هي التي تأخذ الحيّز الأكبر في إنتاجهم الثقافي في هذا العصر الحديث.

ثانياً، في الجانب الاقتصادي، تعيش مجموعات الإنتاج أو المجتمع المدني في الداخل إقصاءً اقتصادياً: على المستوى الفلسطيني كونه «مواطناً إسرائيلياً»، الإسرائيلي، كونه يواجه سياسة عنصرية جلية، والأوروبي، بسبب ميول الصناديق الأوروبية إلى تمويل مشاريع ومؤسسات ثقافية فلسطينية في الضفة والقطاع، أكثر من تلك المنتجة «داخل إسرائيل» على اعتبارها «مموّلة» إسرائيلياً وهي «ليست تحت الاحتلال». وفي هذا السياق، لا نتحدث عن المؤسسات والمشاريع المدنية فقط، بل عن أشكال فقر ثقافي أخرى، مثل شبه انعدام دور النشر المهنية القادرة على الوصول إلى الوطن العربي، بالإضافة إلى اقتصار الوجود الإعلامي على الصحافة المكتوبة (الفقيرة أيضاً)، بسبب منع الفلسطينيين من امتلاك فضائيات أو شاشات محلية أو إذاعات خاصة. الأمر الذي جعل خطابهم الثقافي بعيداً عن الإعلام، وبالتالي فهم يستهلكون ما ينتج في الإعلام الإسرائيلي أو، مؤخراً فقط، في الفضائيات العربية.

ثالثاً، مواجهة محاولات سيطرة المشهد الثقافي الإسرائيلي على الفلسطيني أو بلعه. فوسط ازدحام المشاريع الثقافية الإسرائيلية المعنونة بشكل مباشر أو غير

مباشر بتعابير زائفة كـ«التعايش العربي اليهودي» و«السلام»، ووسط إغراءات تمويل وزارة الثقافة الإسرائيلية للنشاطات الفلسطينية، تقف المؤسسة والفرد الفلسطيني في الداخل في مفترق طرق: فإما الفكاك من هذا المشهد وسلك الطريق «الوعرة» في استهلاك/إنتاج مشهد فلسطيني حر ومستقل، وإما التعامل بمنطق «هذا هو الموجود»، أو «هذا التمويل من حقي على الحكومة»، وبالتالي السقوط فيما نصفه بـ«التطبيع الثقافي»، والمتجسّد على سبيل المثال بتوزيع منح تفرغ لـ«كتّاب» أو «شعراء» فلسطينيين من قبل وزارة الثقافة الإسرائيلية، أو تنظيم مهرجانات تحمل أسماء تجميلية كـ «شهر الثقافة والكتاب العربي».

وسط هذه «القطيعة» عن مدّه الحضاري العربي، ومحاولة ابتلاع ثقافته وأسرلتها، يجد الشباب الفلسطيني في الداخل منفذاً فذاً لإنتاجه الثقافي وتقديمه، وهو عالم الإنترنت. فهو يعرض نتاجه، من الأدب والشعر والفن التشكيلي والفيديو والفوتوغرافيا، إلخ.. عرضاً «افتراضياً» في المدونات مثلاً، أو عن طريق موقع الفيسبوك، حيث يشكل الأخير مساحة لخلق شبكة بشرية هائلة التفرّع وسريعة التوسّع. أو عرضاً «ملموساً» عن طريق إرسال نتاجه الإبداعي، إن تحدثنا عن المكتوب مثلاً، بواسطة الإنترنت، فحضوره في المطبوعات والصحف والملاحق العربية، أصبح بارزاً في الآونة الأخيرة. هنا، تشكّل الشبكة العنكبوتية حيّزاً ثقافياً «عربياً» فاعلاً ومفتوحاً بالنسبة للشباب الفلسطيني «المعزول» في الداخل، لإنتاجه واستهلاكه. ولعلّ الإشارة تجدر إلى وجود محاولة هؤلاء الشباب خلق حيّز ثقافي بديل، إلى جانب المؤسسات الأهلية والأحزاب والتيارات السياسية، والتي تعنى، معظمها في بالشأن السياسي أو الحقوقي، وهو المقاهي. فرغم وجودها، هي الأخرى، في المدن على وجه الحصر، إلا أنها هي أيضاً تضرب عصفورين دفعة واحدة؛ هي حيّز غير ملزم وغير منوط بتمويل أجنبي وشروطه، ولا بمدراء مشاريع كبار «المنصب» ذوي أجندة «ثقافية» تقليدية. وهي أيضًا متسع للتفاعل مع الشارع والناس غير المحسوبين على «الشرائح المثقفة»، وبالتالي يسلك الشباب الفلسطيني باتجاه أن يذلّل استمرار نموّ مفهوم النخبوية في الثقافة.

هذه المتسعات وسبل التواصل، لا تعني البتة وجود هذا الشباب في مكان آمن. إنه، بالذات في هذه اللحظة، مضطر إلى أن يستثمر هذا التواصل مع وطنه العربي والعالم، ليس من أجل بناء مشهد ثقافي فلسطيني سليم وصحّي ومبدع

و«ممتد» فحسب، بل لتحطيم بعض الأسس التي بُني عليها المشهد القائم (النابعة، على سبيل المثال لا الحصر، من خطاب سياسي تقليدي لا يمكنه احتواء الثقافي المفتوح والمتعدد، أو من الخطاب الذي مُسَّ من الأسرلة وأشكالها بجوهره أو شكله). فالشباب الفلسطيني، الساعي نحو «ممارسة ثقافية» جديرة ومؤثرة، عليه أولاً أن يدمّر الكثير. عليه أن يقاوم الاحتلال وأشكال تهويد ثقافته وهويته، والعقلية المجتمعية التقليدية أو الرجعية والخطاب السياسي عندما يهدف إلى بناء الثقافة ولا قدرة لديه لاحتواء فضائها، وغيره. «من أراد أن يولد عليه أولاً أن يدمر عالمًا»، (هيرمان هيسه).